التفاعل بين الأدب المغربي والمشرقي في آثار رحلة المقري**

*د.فتحي محمد/جامعة سيدي بلعباس،الجزائر

ملخص:

ألف الإنسان العربي الرحلة فاتخذها قاعدة في حياته، بغية السير في مناكب الأرض، والتعرف على طبيعتها وأعراقها المتباينة الأجناس والثقافات.

تكشف الرحلة الحجب المستورة عن الرحالة وتضعه في موقع طيب لمقايسة نفسه وأحوال أمته مع بقية الأمم، ومن ثمة فهي تنمي الطموح وتقوي العزيمة وتذكي القريحة وتشبع الظمأ الروحي والنفسي بتكسيرها للحياة الرتيبة، وتحلق بالنفس إلى ما هو أرحب وأفضل.

اتخذ طلاب العلم الرحلةوسيلة في ارتياد الحواضر العلمية مغرباً ومشرقاً إثراء لمعارفهم وتوسيعاً لمداركهم، من هؤلاء أحمد المقري الذي رحل إلى المغرب الأقصى أولا، وبعد أن ضاقت به للسبل، رحل إلى مصر، فاتخذها مقاماً ومنطلقاً إلى بلاد الحرمين، ثم بيت المقدس، ومنها إلى الشام ثم حط عصا الرحال في مصر بغير طيب نفس، فكان خير سفير لأمته، ونبراساً وارياً في الحواضر التي حل بها.

الكلمات المفتاحية: الرحلة - المقري -التفاعل . الأدبي . المغرب . المشرق.

Abstract:

The man has written on journey and took it as a basis in life to walk around the earth, make acquaintance with its nature and its differentes races and cultures. The journey reveals what is hidden from the traveler and put him in a good place to measure himself and the situation of his nation with others. It growths the ambition and strengthen the will, satisfying the spirit thirst through killing boredom and taking higher the spirit into best and wide places.

Students considered the journey from west to east as source of developing knowledge, Ahmed EL Mokri was one of them, he first travelled to extreme Maghreb then to Egypt where he has taken it as a settlement then to move towards Makkah, El Quds, Syria and despite him Egypt was his last refuge. He was the best ambassador for his nation, a flamed cresset in each civilization he settled.

Keywords: The journey, El Mokri, Interaction, literary, west, East.

خلق الله جلت قدرته الكون ضاعناً غير ساكن وجعله في رحلة سرمدية تواكب الزمن، ولم يشذ الإنسان عن هذا الناموس الكوني، فالحركة إكسير للحياة، والسكون طُعم للموت ، فقد مهد الله الأرض وبسطها لعباده ليسلكوا في مناكبها سبلا فجاجاً وسخر لهم الكواكب والنجوم علامات يهتدون بها في حلهم وترحالهم وذلل لهم مطايا امتشاق السفر وطي المسافات للوقوف على آثار صنع الله في خلقه ، وليطوفوا الأمصار المتباعدة الأطراف والمتعددة الأعراق والثقافات، إذ حث الله خلقه على التقارب والتعارف (وجعلناكم شعوبا وقبائل لتعارفوا)(1)، ومن ثمرات هذا التعارف التفاعل المثمر بين بني البشر جميعاً في شتى المجالات.

اتخذ الإنسان الرحلة بمختلف طرائقها منذ العصور الغابرة سبيلا للاتصال بصنوه، للاستفادة من مكتسباته ومعارفه وتنمية مهاراته، فلقاء الرجال تلقيح لعقولها كما ذكر الحكماء، وتعد الرحلة مدرسة تثقيفية وتعليمية للزائر والمزور على حد سواء لتفاوت الجنس البشري في الطبع والقدرات، وهي وعاء الخبرات ومفارز التجارب على مر الدهر، فقد أرسل محمد الغزناوي، الرحالة

البيروني (623 ـ 440 هـ/ 973 ـ 1048 م) في رحلة استكشافية إلى بلاد الهند لاستقصاء أحوالها الثقافية والدينية والبشرية، فوجدها تباينا بجميع ما تشترك فيه الأمم.

أهمية الرحلة:

إن للرحلة قيمة تعليمية فهي تضع الفرد في مجال طيب لمقارنة نفسه مع غيره، ومع ما شاهده من عجائب الأمصار وأحوال العباد، فيزداد بذلك علماً يقيناً، بأحوال نفسه وبأحوال أمته، قال: المسعودي (ت 346 هـ/ 907 م) ليس من لزم وطنه وقنع بما نما إليه في إقليمه، كمن قسم عمره على قطع الأرض، ووزع أيامه على تقاذف الأسفار (2)، يستعلم بدائع الأمم بالمشاهدة والمعاينة،ويسهم في تعريف الناس بها.

لم يجمع الله منافع الدنيا في أرض واحدة، بل فرقها في شتى البقاع فكانت الناس أحوج إلى بعضها البعض، فالمسافر يجمع العجائب ويكسب التجارب ويجلب المكاسب ويكشف النقاب عن فكره وسلوكه وتنظيمه الاجتماعي، لأن القدرات الفكرية والإبداعية ليست في مستوى واحد، بل هي متفاوتة بين الأمم حسب عرقها وطبيعتها وتنشئتها وميولاتها الفطرية والمكتسبة، فالرحلة تطلع إلى المجاهل وإذكاء للقريحة، فهي تنمي الطموح وتقوي العزيمة وتشبع العطش والظمأ الروحي والنفسي.

كانت الرحلة وستظل لوناً من النشاط الإنساني المألوف فهي وسيلة لتكسير الحياة الرتيبة والإفلات من قيودها إلى ما هو أرحب وأفضل، قال تعالى: (هُو الَّذي جَعَلَ لَكُم الأَرضَ ذَلُولاً فَامْشُوا فِي مَنَاكِبِهَا وَكُلُوا مِنْ رِزْقِهِ وَإِلَيهِ النُّشُور) (3) هذه دعوة صريحة إلى الرحلة وعدم السكون بالضرب في غياهب المجهول بغية الاستكشاف والاسترزاق، لأن الماء إذا ركد أسن ولا يصفوا إلا عند رحيله، والشمس لا ينعم الخلائق بفضلها إلا بحركاتها ورحلاتها المتوالية.

ألف الإنسان العربي الرحلة فهي لقاعدة في حياته والاستقرار هو الاستثناء فكانت واقعاً مألوفاً في يومياته ،(لإِيلاَفِ قُرَيْشٍ إِيلاَفِهِمْ رِحْلَةَ الشِّتَاءِ وَالصَّيْفِ)(4)، ولها في الشعر العربي آثار ملموسة عاشها الشاعر العربي القديم في كثير من مواطن حياته ،إذ غالباً ما كان يتردد الشعر في رحلاتهم على الأطلال للبكاء والتفجع على رحيل الحبيب ،فأضحى ذلك عرفاً شعرياً كثيراً ما يرحل الشاعر على ناقته إلى المواطن المهجورة ليفرج عن نفسه الهم وكدر الحياة وينشد قصائد شعرية في هذه المواقع استعادة للذكريات الخالدة.

أبرز الكاتب أحمد وهب رومية معالم الرحلة العربية في القصيدة الجاهلية في دراسة تحليلية لمفهوم الرحلة عند الشاعر الجاهلي في رحلته على ناقته ورحلة الظعائن والتي تعطي صورة رمزية عن قدم رحلة حياة الإنسان العربي في هذا العالم المتغير الأطوار هروباً من الواقع الأليم بحثاً عن الملاذ الآمن القابع خلف أسوار الواقع المثقل بالسراب، قال طرفة بن العبد:

وَإِنِّي لأُمْضِي الهَمَّ عِنْدَ احتِضَارِهِ ... بِعَوْجَاءَ مِرْقَالٍ تُرُوحُ وَتَغْتَدِي (5)

ظلت الرحلة ماثلة في الأدب العربي قديمه وحديثه، وهي تعد فناً من فنونه ووسيلته بالتوسع في أضربه المعرفية والفنية، يظهر شغف أهل المغرب الإسلامي بالرحلة وطوافهم في الأماكن النائية لسجية في طباعهم، فالعربي بحكم فطرته ميال إلى التنقل شغوف بالرحلة والتجوال بغية الاستكشاف والاستطلاع والتمتع بالحياة والوصول إلى مصادر المعرفة، إذ ظل المغربيون متعلقين بأذهانهم إلى المشرق العربي مستطلعين أحواله الدينية والأدبية نظماً ونثراً.

اتخذ الطلاب في المغرب الإسلامي من الترحل وسيلة إلى المشرق العربي لطلب العلم، فكان من أهم العوامل في إشاعة فن الرحلة في هذه البقاع، إذ اتسع نطاقها وتعددت مجالاتها وتنوعت وسائلها، فكان لها الفضل في أن تشتهر هذه المواطن في هذا الفن الذي تفوق فيه أهل المغرب على المشرق برحلاتهم (فإن عدد المغاربة الراحلين إلى المشرق لطلب العلم دون أن يستهدفوا الحج أو التجارة كبير (6) للتردد على الحواضر الكبرى في العالم العربي وخارجه.

هتفت قلوب طلاب العلم في رحيلهم إلى المشرق العربي للاتصال بأدباءه وشعرائه والإقبال على رياضهم والامتاح من عبق فيضهم، والتلمذ لهم إثراء لمعارفهم وتوسيعاً لمدركهم، ولم تكن جلسات التعلم خاضعة لزمن معين، لأن مدة التحصيل قد تطول أو تقصر ومكوث الطالب في حلقات الدرس تخضع لرغبته ولا ينتقل إلى غيرها، إلا بعد أن يكون قد أنس في نفسه التمكن وأنه أخذ ما تيسر له من علوم المنقول والمعقول والتمرس في كلام المنظوم والمنثور، ومن ثم يجيزه (7) شيخه أو شيوخه الذين تتلمذ لهم اثباتا لإتقانه للعلوم التي درسها.

يسعى طلبة العلم إلى تعدد مشايخهم والجلوس في حلقات عدة ما يجعلهم يطوفون في كثير من الحواضر المشرقية، وغالباً ما كانت الرحلات الطلابية (تتجه إلى عواصم الأمصار الإسلامية الشهيرة، مثل الإسكندرية والقاهرة في مصر وبغداد والبصرة والكوفة في العراق ومكة والمدينة في الحجاز وصنعاء في اليمن، ومما لا شك فيه أن هناك مراكز أخرى لم تذكر، بسبب غلبة الأماكن الشهيرة عليها (8) على الرغم من أهميتها العلمية.

تفتحت الآفاق نحو الطلاب الجزائريين للمزيد من الاطلاع والتحصيل العلمي، فتغربوا تاركين أوطانهم وذويهم حباً في العلم والتقرب من أساطينه للتزود من عبق فيضهم رغبة في توسيع معارفهم وتنوير عقولهم، فلذلك هان عليهم تبعات الاغتراب، لتشبعهم بهذه الثقافة وتمثلها سلوكاً في حياتهم فتوارثوها أجيالاً متعاقبة، حث عليها فضلاء علمائهم وأمعنوا في بيان فضلها، نلمس قول الشاعر ابن رُشَيد:

تَغَرَّبْ وَلاَ تَحْفَلْ لِفُرْقَةِ مَوْطِنٍ تَفُزْ بالمني في كُلِّ ما شِئْتَ مِنْ حاجِ

فَلَوْلاَ اغْتِرَابُ المِسْكِ ما حَلَّ مَفْرِقًا . وَلَوْلاَ اغْتِرَابُ الدُّرِّ لَمْ يَحْضَ بِالتَاجِ (9)

ويذكر ابن وكيع التنسي في تمجيد الرحلة (تغرب على اسم الله، والتمس الغنى وسافر، ففي الأسفار خمس فوائد، تفرج نفس، والتماس معيشة، وعلم وآداب ورفقة ماجد (10) ومن منافعها تيسير طلب العلم للذين يشدون الرحال ويقبلون على المجهول ويمتشقون الأخطار في سبيله.

إن الرحلة عامل فعال في النهوض بطموح النفس ودفع فضولها في بلوغ مناها العالية بالاحتكاك بالثقافات والتفاعل مع الحضارات، من أجل ذلك سلك طلاب العلم في الجزائر سبيلين لا يقل أحدهما أهمية عن الآخر في التحصيل العلمي، إذ فضل بعضهم بلاد الجوار المغرب الأقصى ثم تطلعوا إلى المشرق العربي، للارتياد على حياض العلم المتعددة.

كان طلب العلم من أقوى الأسباب في دفع الشباب الجزائري إلى امتشاق الرحلة ومكابدة الصعاب حباً في الارتياد على حواضر العلم والتعلق بذويه خصوصاً بعد ما فقد هؤلاء الرحالة في مواطنهم ما يشبع نهمهم الشديد واللامتناهي في التحصيل العلمي والتعرف على جديد الأدب والعلوم التي تاقت إليها نفوسهم ولم تصل إليها أيديهم وترقى إليها معارفهم في أوطانهم ،و

تطلعت نفوس هؤلاء في الرحيل إلى المشرق (لأنهم يرون في علمائه أساتذة يجب الأخذ عنهم ، لأنهم سبقوهم إلى الميدان) (11) والنهل من المورد الأصيل في شتى ضروب العلم والمعرفة من هؤلاء الرحالة الجزائري أحمد بن محمد المقري التلمساني .

رحلات المقري:

امتاز المقري برحلاته المتعددة والمتنوعة رغبة في طلب العلم والنهل من معينه الذي اعتراه بعض النضوب في بلاده، لأن (النزاع بين العثمانيين والزيانيين أدى إلى تدهور تلمسان خلال القرن العاشر اقتصادياً واجتماعياً وثقافياً فهاجر عدد من كبير من عائلاتها الغنية والعلمية إلى المغرب الأقصى)، (12) وقد يكون جد المقري محمد من هؤلاء المهاجرين، والذي تولى قضاء مدينة فاس أيام السلطان أبي عنان فارس، ولا شك أن أحمد المقري استفاد من مركز جده وسمعته في ربط الصلات مع علماء فاس وأعيانها.

1 / المغرب الأقصى

رحل أحمد المقري إلى مدينة فاس المغربية 1009 هـ/1601 م بعد أن تلقى تعليمه الأولي في مسقط رأسه تلمسان ، رغبة في المزيد ومواصلة تكوينه العلمي على الرغم من براعته (في علوم الشريعة والأدب والتاريخ ، إذ كان آية في الحفظ وسعة الاطلاع واستحضار أبواب الفقه ونوازله ، راسخ القدم جيد القريحة قوي البديهة مسترسلا بليغاً وكاتباً مجيداً وشاعراً متفنناً وحافظاً متقناً ، يروى عنه أنه حفظ الكتب التي في خزانة السلطان أحمد المنصور الذهبي في ثلاث سنوات وأنه قال لو أحرقت الخزانة لأمليتها من حفظي)،(13) ونال حظوة رفيعة عند هذا السلطان ، إذ كلفه بحمل وصيته إلى ولي عهده المأمون بعد عودته من مراكش إلى فاس ، كما تولى المقري القضاء والإفتاء والإمامة والخطابة بجامع القرويين بالمغرب الأقصى.

ألّف المقري أثناء إقامته في المغرب الأقصى أزهار الرياض في أخبار القاضي عياض نزولا عند رغبة أهل بلده تلمسان في التعريف بهذا العالم الأريب والفقيه اللوذعي صاحب كتاب الشفاء، والذي بلغت شهرته الآفاق، فقد قيل عنه أنه كان كالتمرة كلما ليكت زادت حلاوة، أي كلماحركته بالسؤال فاض علماً غزيراً كالنهر الرقراق العذب الصافي، إلا أن المقري لم يقصر مؤلفه على التعريف بعياض فقط، وإنما شمل طائفة من أخبار وأعلام المغرب والأندلس.

2 / المشرق العربي:

أ / مصر

إن تردي الأحوال السياسية واضطرابها في المغرب، حملت المقري على التعلل بالرحيل إلى المشرق العربي بنية الحج إثر وفاة سلطان الدولة السعدية أحمد المنصور وتغير الظروف في هذه المملكة ،(إنه لما قضي الملك الذي ليس لعبيده في أحكامه تعقب أو رد ولا محيد عما شاء، سواء كره ذلك المرء أورد، ... بقطر المغرب الأقصى الذي تمت محاسنه، لولا أن سماسرة الفتن سامت بضائع أمنه نقصاً وطما به بحر الأهوال(14)لاشتداد الخلاف بين أبناء السلطان على كرسي الملك ، هذا الوضع المتردي كان من العوامل الفعالة التي عجلت في رحيل المقري إلى أرض النوبة .

يصف المقري البحر في رحلته إلى مصر(كم استقبلتنا أمواجه بوجه بواسر فسمعنا للجبال صفيراً وللرياح دوياً عظيماً وزفيراً (...) وقد أشرفت النفوس على التلف من خوفها واعتلالها وآذنت أحوال بعد انتظامها باختلالها وساءت الظنون وتراءت

في صورها المنون (15)، يبدوا أن الرجل لم تكن له خبرة بركوب البحر فنغصت عليه أهواله ومخاطره، وكدرت صفو رحلته وشدت عليه أنفاسه فتفتقت قريحته في ذكر مخاطر البحر:

البَحْرُ صَعْبُ المرامِ جداً لاَ جعلَتْ حاجتِي إليْهِ

أليْسَ ماءً ونَحْنُ طِينُ فَما عَسى صُبْرُنا عَلَيْهِ (16)

تنفس المقري الصعداء وتبددت مخاوفه، بعد أن لاحت له بوارق النجاة وأمل الحياة بظهور البر المصري (ثم وصلنا إلى مصر المحروسة فشفينا برؤيتها من الأوجاع وشاهدنا كثيراً من محاسنها التي تعجز عن وصفها القوافي والأسجاع (17) ثم نزل المقري أرض مصر فتفاعل مع جوها العلمي، إذ مكث بها حوالي سنة يدرس ويشاهد ويتصل بعلمائها وعامتها ويتعرف على محاسنها وجمال مساجدها وأحيائها وحيوية شعبها ونشاط الحركة العلمية والفكرية وخاصة في جامع الأزهر.

ب / الحجاز:

استغل المقري وجوده في مصر للرحيل إلى الحجاز مقصده الأكبر (كررت منها الذهاب إلى البقاع الطاهرة (...) وأمليت فيها على قصد التبرك دروساًعديدة، والله يجعل أيام العمر إليها مديدة ووفدت على طَيبة المعظمة ميمماً مناهجها السديدة سبع مرات وألقيت بحضرته صلى الله عليه وسلم بعض ما منَّ الله به علي في ذلك الجوار وأمليت الحديث النبوي، بمرأى منه عليه الصلاة والسلام ومسمع(18)يظهر النص سعادة المقري واعتداده بالنفس بإلقائه دروساً في الروضة الشريفة على قرب من المصطفى عليه الصلاة والسلام ، ولا ريب أنه لا يحظى بالجلوس في هذا المكان الطيب ، إلا من كانت له قدرة علمية فائقة ، لأن موسم الحج على الرغم من طابعه الديني ، إلا أنه كان بمثابة ملتقى دولي يجتمع فيه أهل العلم وخاصته للمحاورة والمناظرة ومعياراً للحكم على مستوى العلماء ، وينبوع إلهام تتفتق فيه مواهب الرحالة من كافة فئاتهم العلمية والاجتماعية ، فضلا عن أداء المناسك التعبدية.

لا مناص أن تردد المقري على بلاد الحرمين كفل له نسج علاقات ودية وعلمية مع عدد غير قليل من العلماء والفضلاء من شتى بقاع العالم الإسلامي، ومما زاده ثقة في نفسه إتقانه للعلوم الشرعية، فقد بدايفقاً نحريراً وشيخاً محدثاً، وقد يعزى ذلك إلى نشأته الدينية التي صقلت موهبته، فكان شيخه الأول عمه سعيد مفتي تلمسان لستين سنة (19) والذي أخذ عليه في ربع صباه مختلف العلوم يؤكد المقري ذلك في البيتين المواليين، ما يظهر أن الجزائر لم تكن أرض يباب بلا علم ولا أدب.

وقد أخذت جامع البخاري . ومسلم عن حائز الفخار

عمي سعيد وهو عمن يدعى . بالتنسي قد أفاد الجمعا (20)

استطاع المقري أن يتبوأ منزلة جليلةومقاماً رفيعاً في الحرمين الشريفين بإلقائه دروساً في الرحاب المقدسة مثبتاً مقدرته العلمية وتفوقه الأدبي في بلاد الحرمين، وألف هناك كتابه فتح المتعال، ومرد هذا الرصيد العلمي اللافت للانتباه، والذي نال به رضى أهل العلم وخاصته وتفاعلوا معه في البقاع الطاهرة إلى التكوين الأولي، فوصفه أحدهم بقوله:

لَهُ القَلَمُ الأَعْلَى بِشَرْقٍ وَمَغْرِبٍ . لَهُ المَوْضِعُ الأَسْمَى عَلى الكُلِّ فِي الكُلّ (21)

العُلَمَاءُ مُلَّجَعُوا جَمِيعُهُمْ . عَلَى مَعَالِيهِ التِّي لاَ تُجْحَدُ (22)

ج / بيت المقدس:

بعد أن أدى المقري فريضة الحج الأولى عاد إلى مصر ، ومنها رحل إلى بيت المقدس بفلسطين أكثر من مرة ، فوصف دخوله المسجد الأقصى(وأبصرت بدائعه التي لا تستقصى بهرني جماله الذي تجلى الله به عليه وسألت عن محل المعراج الشريف ، فأرشدت إليه وشاهدت محلا أمَّ فيه الرسول صلى الله عليه الصلاة والسلام الكرام الهداة) (23)، سمحت هذه الزيارة للمقري الالتقاء بعلماء وأدباء فلسطين وشعرائها والتجول في أرض الإسراء والمعراج فتعرف على معالمها الأثرية وألقى عدة دروس بالأقصى والصخرة المنيفة ، وزار مقام الخليل ومن معه من الأنبياء وذوي المقامات الشريفة.

د / عودة المقري إلى مصر

بعد أوبته من الحجاز وأدائه الحجة الخامسة استقر في مصر بصفة غير نهائية.

وألقيت في مصر عصا التسيار . بعد بلوغ أشرف الديار (24)

تفاعل شيخنا معالمجتمع المصري فأوجد لنفسه قدراً مميزاً فيه، إذ تزوج من سيدة مصرية ذات مكانة دينية واجتماعية، على الرغم من حداثة وفادته وغربته وذلك لنبوغه الفكري والأدبي ولنشاطه اللافت، فلازم الدرس والتدريس في الجامع الأزهر، وتبوأ مكانة في مجتمع مصر العلمي والأدبي، ما يظهر التفاعل والترابط الوثيق بين المشرق الإسلامي ومغربه، ويعطي انطباعاً حسناً عن سعة حجم العلاقات الثقافية والأدبية التي كانت تتم في العالم العربي بين مشرقه ومغربه ويكشف عن مدى هذا التفاعل بين جناحي العالم العربي واهتمام كل منهما بالآخر.

اهتم المقري في مصر بالتأليف والتدوين، وأنذر نفسه للكتابة ، فألف هناك كتابه الشهير نفح الطيب من غصن الأندلس الرَّطيب وذكر وزيرها لسان الدين بن الخطيب (713 . 776 هـ)، والذي يعد من أهم مصادر الأدب المغربي والأندلسي، استجابة لصديقه أحمد الشاهيني شيخ دمشق وشاعرها (فطلب مني إذ ذاك أن أتصدى للتعريف بلسان الدين في مصنَّف يعرب عن بعض أحواله وأنبائه وبدائعه وصنائعه ووقائعه مع ملوك عصره وعلمائه وأدبائه ومفاخره (...)كي ما يكون ذلك لهذه الأغراض مُشيعاً ويخلع على مطالعه بهذه البلاد المشرقية من أغراضه البديعية ومنازعه وشيعاً فأجبته أسمى الله قدره الكبير)(24)، فلم يكن غرض المقري من هذا المؤلف ريادة شهرة أو طلب مال أوجاه، بقدر ما كان تلبية لرغبة أهل الشام من خلاله صديقه الشاهيني والذين كانت نفوسهم تتوق إلى معرفة أحوال الغرب الإسلامي ، لأن جل الفاتحين الأوائل كانوا شاميين، فقدم لهم هذا المؤلف في حلة مستعذبة في مضمونها الفكري والأدبي.

قد يكون هذا المؤلف من بين العوامل التي أثارت على المقري الحساد، فتعكر صفو حياته في مصر، أو أنه لم يبلغ مراده ولم يصل إلى ما كان ينشده في هذا البلد من المعالي، يكشف قوله عن ذلك (25):

تَرَكْتُ رُسُومَ عِزِّي فِي بِلاَدِي . وَصِرْتُ بِمِصْرَ مِنْسِيَّ الرُّسُومِ

وَرُضْتُ النَّفْسَ بِالتَّجْرِيدِ زُهْداً .وَقُلْتُ لَهَا عَنِ العَلْيَاءِ صُومِي

مَخَافَةَ أَنْ أَرَى بِالحِرْصِ مِمَّنْ. يَكُونُ زَمَانُهُ أَحَدَ الخُصُومِ

امتشق المقري مصاعب الرحلة والسفر نحو طلب المجد لعلو نفسه وطموحه اللامحدود ورغبته فيما هو أفضل، خصوصاً وأن صيته قد ذاع في الشام وأصبحت سيرته كشذى الورد الفواح تسوقه الريح إلى كل مكان، فشدَّ الرحال نحو هذه البقاع الطيبة والتي يجمعها بالجزائر عرى الأرومة والأخوة فضلا عن وحدة الدين والتاريخ والمصير المشترك.

هـ / الشام.

وجد المقري في الشام ما يروقه ويليق بمقامه ويعوضه في رحلته عن أهله، فأُنزِل المدرسة الجقمقية بدمشق إكراماً لمقامه وإكباراً لعلمه وإجلالاً لفضله فنال بذلك الحظوة والدرجة الرفيعة والتبجيل من أعيان دمشق وعلمائها ربما لم ينله غيره، فاجتمع هناك مع أقطاب الأدب نثراً ونظماً فولع به الشاميون، وتبارى الشعراء في وصف مناقبه وسعة علمه وعلو كعبه، ترجم الشيخ الرحالة الجزائري هذا الترحاب والتعظيم بقوله (26):

وما زَالَ بَي إِحْسانُهُمْ وَجَمِيلِ بِهِمْ. وَبِرِّهِمْ حَتَّى حَسِبْتُهُمْ أَهْلِي

فارتاحت نفس المقري لهذه الرحلة التي فرجت كربه وأزالت عنه منغصات الحياة التي اعترته في القطر المصري ، فلذلك عدَّ هذه الرحلة من السعي المشكور وحمد الله عليها (حمدت للشام رحلة أتاحت لعيني اجتلاء محياه) (27) في مخلوقاته الشامية، وللشبه الكبير في طيب هوائها مع الأندلس وبلاد المغرب ومنها الجزائر (وعند رؤيتي لتلك الأقطار الجليلة الأوصاف (...) تفاءلت بالعود إلى وطن لي به أو طار، إذ التشابه بينهما قريب في الأنهار والأزهار ، ذات العرف المعطار وزادت بهذا التقديس الذي همعت عليه من الأمطار (...)وكنت قبل حلولي بالبقاع الشامية مولعاً بالوطن (الجزائر) لا سواه ، فصار القلب بعد ذلك مقسماً بهواه) (28) ، فطابت نفس المقري في الشام لما تتوفر عليه من معالم طبيعية ساحرة بصفاء نغماتها الناطقة بشتى أنواع الفن والجمال ، ولتشابه مناخها مع مناخ الجزائر ، وقد أفصح عن ذلك نثراً ونظماً في قوله:

وجدت بها ما يملأ العين قرة . ويُسلي عن الأوطان كل غريب

يبدو أن الشهرة العلمية التي حظي بها المقري من أعيان دمشق وعلمائها أفسحت له المجال ليدرس في الجامع الأموي بدمشق، فاستقطبت دروسه عقول الخاصة قبل العامة وتقاطرت الوفود عليه من كل أوب وصوب لضلوعه في شروح البخاري ومسلم وسعة اطلاعه بشؤون بلاد المغرب العربي والأندلس ، التي كانت قاب قوسين أو أدنى من تهاوي عروشها أمام ضربات الأسبان ، وقلوب المشرقيين تتحسر ألماً من جراء ما حلَّ بإخوانهم في الغرب الإسلامي وتتحرق لمعرفة أخبارهم ، فروى عطشهم المقري الذي بدا شهاباً وارياً في سماء دمشق ، فكان لهذا التألق وقع في نفوس شعراء الشام ، فأبدعوا وتفننوا في مدحه والترحيب به ووصف مآثره ، من ذلك قول عبد الرحمن العماد ي:

شَمْسُ هُدًى أَطْلَعَهَا المغرِبُ. وَطَارَ عَنْقَاءُ بِهَا مُغْرِبُ
فَأَشْرَقَتْ فَي الشَّامِ أَنْوَارُهَا . وَلَيْتَهَا فِي الدَّهْرِ لاَ تَغْرُبُ
أَعْنِي الإِمَامَ العالِمُ المقَّرِي . أَحْمَدَ مَنْ يكتُبُ أَو يَخْطُبُ

دَرْسٌ غَرِيبٌ كُلَّ يوم لَهُ . يُمْلِي وَلَكِن حِفْظُهُ أَغْرَبُ
مُحَاضَرَاتٌ مُسْكِرٌ لَفْظُهَا . بِكَأْسِ سَمْعَ رَاحُهَا تُشْرَبُ

ظهر المقري كبدر الدجى في الشام فأضاء أركانه بنور علمه الفياض وسقى رباه سلسبيلا بسحر بيانه، فأسكر النفوس المتعطشة من ذوي الألباب والنهى، لأخبار وطنهم الثاني، فعلق سمعهم بمحاضراته، وتفاعل الشرق بالغرب والتحما في رياض التاريخ والأدب.

رِيَّاضُ آدابٍ سَقَاهَا الحيَا . فَفَاحَ مِسْكاً نَشْرُهَا الأَطْيَبُ
قُلُوبُنَا قَدْ جُذِبَتْ نَحْوَهُ . وَالحُبُّ مِنْ عَادَاتِهِ يَجْذِبُ
إِنْ بَعُدَتْ عَنَّا فَإِنَّ الهَوَى . فَالفَضْلُ فِينَا نَسَبٌ أَقْرَبُ
كَمْ طَلَبَتْ تَشْرِيفَهُ شَامُنَا . بُشْرَى لَهَا فَلْيَهْنِهَا المَطْلَبُ (29)

إن إكبار الشاميين للمقري وإعجابهم بشخصيته الأدبية وإبداعاته العلمية ، قد يعود إلى الرغبة الجامحة والشوق المتعاظم في التعرف على التراث العلمي والأدبي للجزائر بصفة خاصة ولبلاد الغرب الإسلامي عامة الذي كان يعاني ألم جراح الفردوس المفقود " الأندلس "كما أسلفت القول ، وإلى قوة حضور بديهة المقري نظماً ونثراُ وهي صفات ضرورية لمن يروم الجلوس للتدريس والإقراء ومقارعة الأذهان بالحجة والبرهان، كان لهذا السبيل الأثر الأقوى في تفاعل العقول وربط الأواصر الثقافية بين المشرق والمغرب وفي إماطة اللثام عن التراث العلمي والأدبي للغرب الإسلامي وتشويق القارئ العربي إلى الاهتمام به والاطلاع عليه ،استطاع بذلك المقري أن يخلق كياناً للشخصية الأدبية الجزائرية المغربية في المشرق العربي من خلال دروسه ومحاضراته بنظره الثاقب وعبقريته الفذة، فكان كما قال الشاعر(30)

عَلاَّمَةُ العَصْرِ بِلاَ مُفْتَرِي . وَاحِدُ الدَّهرِ بِلاَ مُمْتَرِي

تفاعل المقري مع إجلال الشاميين لقدره لغزارة علمه ونبل خلقه، فلا يقدر العلم إلا عالم أو متعلم، فأبان عن عظيم هذا الود والترحاب الجميل في قوله:

وجدت بها ما يملأ العين قرة . ويُسلي عن الأوطان كلَّ غريب

تجاوب المقري مع بيئته الجديدة وطبيعتها الجميلة بما انطوت عليه من مشاهد فاتنة ومظاهر الحسن التي أحبها شغف بها، فظفرت بحاسة بصره، فوصفها وصفاً حسياً دقيقاٌ ينم عن قدرته الابتداعية والابتكارية فصور دمشق بقوله:

أما دمشقُ فخضرة - لعبت بألباب الخلائق
هي بهجة الدنيا التي - منها بديعُ الحسنِ فائق
لله منـ ـها لصّالحيـ - ـةُ فاخرت بذوي الحقائق
والغُوطة الغنّاء حيّـ - ـت بالورود والشقائق
والنهر صافٍ والنسيـ - ـم اللّدن للأشواق سائق
والطير بالعيدان أبـ - ـدت في الغنا أحلى الطرائق (31)

أثبت المقري وجوده العلمي في الشام وافتك الإعجاب والتقدير من أولى الأمر والعلم، فكان أديب زمانه ومرآة أمته بلا منازع، اعترف له أهل الشرق بالسبق وأهل المغرب بالإكبار والإجلال لمكانته العلمية والأدبية، كما أسهمت رحلات المقري في توسيع معارفه وتنويعها حتى غدا قطباً من أقطاب الفكر والأدب والتاريخ في المغرب الكبير خاصة والعالم العربي عامة، إذ عرَّف الرجل برحلاته المشرقيين بما كانوا يجهلون بالأدب المغربي والأندلسي من خلال مؤلفاته العديدة، والتي أجملها في قوله:

ولي تآليف على العشرينا - زادت ثمانيا حوت تعنينا (32)

لا ريب أن هذا الزخم المعرفي للذي جمع المؤلف بين الشعر والنثر وأدب التراجم والتاريخ والرحلات ، يمثل مستنداً أولياً هاماً في دراسة الأدب المغاربي والأندلسي عامة والجزائري بصفة أخص، لما تضمنه من تراجم عديد الشعراء والعلماء وأخبارهم في عصره ومصره، ويمكن الاستفادة منه في تحقيق ما ألف من بعده، وقد نسقط في هذا السياق قول المقدسي على شيخنا المقري: فإنه ما زالت العلماء ترغب في تصنيف الكتب لئلا تدرس آثارهم ولا تنقطع أخبارهم، فأحببت أن أتبع سُنتهم وأقفوا سَننهم وأقيم علماً أحيي به ذكري ونفعاً للخلق أرضي به ربي، ووجدت العلماء قد سبقوا إلى العلوم فصنفوا على الابتداء ثم تبعهم الأخلاق فشرحوا كلامهم واختصروه (33)، وهذا ديدن العلماء.

ظلت حياة المقري حافلة بالأحداث والتجارب، قضى شطراً كبيراً منها في الرحلات والأسفار ولقاء الرجال والعلماء، شارك في بث العلم ونشره بين الخاصة والعامة في الأمصار التي حل بها، مبرزاً حيويته وتفاعله مع العلم وأهله بالمناظرة والمحاورة.

والملاحظ أن رحلة المقري كانت محددة في معالمها، فهي دينية المقصد وعلمية الهدف، ولم تكن من أجل المغامرة وركوب الأسفار من أجل كشف غياب المجهول على غرار بعض الرحالين العرب كابن بطوطة وغيره.

إلا أن للأجل كلمته الأوفى فتوقفت عجلة المقري في بلاد النوبة على نية غير مقصودة، والرجل في أعز العطاء وذروة الشهرة وعمره لم يتجاوز الحادية والأربعين.

أخيراً إن وفقت فبفضل الله ومنه في الوقوف على بعض مآثر هذا الرجل العظيم، وإن قصرت فذاك جهد المقل، والله من وراء القصد.

الإحـــــــالات

*د.فتحي محمد أستاذ محاضر "أ"بقسم اللغة العربية وآدابها.كلية الآداب واللغات والفنون، جامعة سيدي بلعباس

fathimohamed@hotmail.fr

**أحمد بن محمد المقري التلمساني، ينتسب إلى قرية مقرة (بفتح القاف وتشديده أو بسكونه) بولاية المسيلة، أو بتلمسان، وترجح الثانية التي أوردها المقري في مؤلفاته، ولد في تلمسان عام 986 هـ على الأرجح وتوفي بمصر عام 1041هـ

1 سورة الحجرات، الآية 4.

2 أبو الحسن علي بن الحسن المشهور بالمسعودي: مروج الذهب ومعادن الجوهر، محمد محي الدين، دار الكتاب اللبناني، بيروت، 1991، 1 / 294.

3 سورة الملك الآية 15.

4 سورة قريش الآية رقم 2.

5 يوسف بن سليمان بن عيسى المعروف بالأعلم الشنتمري: أشعار الشعراء الستة الجاهليين، دار الفكر دمشق، د، ت، ص 394.

6 حسين نصار: أدب الرحلة، دار نوبار للطباعة، القاهرة، 1994، ص 34.

7 الإجازة: هي بمثابة شهادة جامعية اليوم، تثبت أن صاحبها تلقى علومه عن علماء أجلاء، تدون فيها قائمة الشيوخ الذين أخذ عنهم، يذكر فيها مواهبه واجتهاداته والمدة التي قضاها في جوار شيخه، تخول هذه الإجازة الحق لحاملها رواية وتلقين المعارف على التي تلقاها.

8 عبد الواحد ذنون طه: دراسات أندلسية، بنغازي، ليبيا، 2004، ص 192.

9 كنون عبد الله: النبوغ المغربي في الأدب العربي، طنجة، المغرب الأقصى، 2004 ،1 / 767.

10 السكري أبو سعيد الحسين: شرح أشعار الهذليين، تحقيق، عبد الستار أحمد فراج، محمود محمد شاكر، مكتبة دار العروبة، د، ت، 2 /16.

11 محمد بن أحمد بن شقرون: مظاهر الثقافة المغربية، دراسات في الأدب المغربي، في العصر المريني، دار الثقافة، الدار البيضاء، 1985، ص 185.

12 سعد الله أبو القاسم: تاريخ الجزائر الثقافي، (ش، و، ن، ت) الجزائر، 1980، 1 / 172.

13 عبد الرحمن الجيلالي: تاريخ الجزائر العام، دار الثقافة، بيروت، 1980، 3 / 145.

14 أحمد بن محمد المقري التلمساني: نفح الطيب من غصن الأندلس الرطيب، شرح وتعليق، يوسف علي الطويل، مريم قاسم الطويل، دار صادر، بيروت، 1995، 1 / 195.

15 النفح، 1 / 39.

16 النفح، 1 / 39.

17 النفح، 1 / 41.

18 النفح، 1 / 63.

19 النفح، 3 / 195.

20 المحبي محمد أمين، خلاصة الأثر أعيان القرن الحادي عشر، المطبعة الوهبية،القاهرة، 1284 هـ، 1 / 303.

21 النفح،3 / 198.

22 النفح، 3 / 195.

23 النفح، 3 / 199.

24 النفح، 1 / 60.

25 النفح،1/ 79.

26 النفح، 1 / 79.

27 النفح، 1 / 69.

28 النفح، 1 / 99.

29 النفح، 1 / 72 ،73.

30 النفح، 3 / 167.

31 النفح، 1 / 59، 60.

32 النفح، 2 / 441.

33 المقدسي: أحسن التقاسيم في معرفة الأقاليم، مكتبة مدبولي، القاهرة،1991/1/